

آثار جبل أسيس (البادية السورية)

د. محمود حمود*

يقع جبل أسيس في محافظة ريف دمشق، ضمن منطقة بركانية في إقليم الحماد السوري، إلى الشرق من الهيجانة. يتبع الموقع إدارياً لمدينة دوما، ويبعد عن دمشق نحو 105 كم بشكل خط مستقيم باتجاه الجنوب الشرقي، ونحو 180 كم عبر طريق دمشق بغداد (يتفرع عنه جنوباً عند موقع البطميات والسبع بيار). كما يشكل الموقع أيضاً مفترقاً لطرق الصحراء ومنها طريق التتف - بغداد، والطريق الذي يتجه جنوباً إلى الزلف والنمارة، وطريق الضمير.

تدعوه العامة بجبل سايس أو سيس، وقد ورد هذا الاسم في نقش بازلتي، يعود إلى العصر الأموي، وهو محفوظ الآن في المتحف الوطني بدمشق. كما ذكره ياقوت الحموي في معجمه، ووصفه بأنه مقام للوليد بن عبد الملك الذي حكم من 86-96هـ/705-715 م. (الشكل: 1)

أدى النشاط البركاني إلى تشكل كتلة مرتفعة لبركان نموذجي ذي فوهة واسعة يزيد قطرها على 500 م وعمقها عن 40 متراً. ويبدو أنّ البركان نشط غير مرة، وهذا ما تدلّ عليه المقذوفات البركانية ذات الأعمار والقساوة واللون المختلف، وفي آخر نشاط له تعرض البركان لانفجار ضخم أودى بالمسلة (الكالديرا) التي تحتل بالعادة فوهة البركان. وتبقى شاهداً على النشاط الأخير. وتسبب الانفجار بتناثر مكونات المسلة على السفوح الداخلية للبركان، وكذلك على السفوح الخارجية المشرفة على الخيرة الواقعة جنوبه وشرقه. كما تهشمت فتحة البركان في الجهة الشمالية الغربية، فيما تعرضت المنطقتان

* المديرية العامة للآثار والمتاحف - دمشق - سورية.

الجنوبية والشرقية للخفس والانكسار حيث تشكل صدع هلالى الشكل يحيط بالبركان من الجهتين المذكورتين.

تشكلت بين الصدع ونهاية سفوح البركان الخارجية من الجهتين الجنوبية والشرقية خبرة سيس التي نشأ بفضلها مركز حضاري مهم. إذ استطاعت مياه الخبرة (تقدر كمية المياه التي تتجمع سنوياً فيها بـ 6 مليون م³)، أن تمدّ الموقع بما يحتاجه من مياه، ولا سيما أن منطقة الحماد من أكثر مناطق سورية جفافاً (تتلقى أقل من 115مم من الأمطار سنوياً)، وتشهد درجات الحرارة فيها فروقات كبيرة. وتشغل الخبرة الجزء المنخفض من المنطقة الواقعة بين حدود الانكسار الخارجي وبداية السفوح الشرقية لجسم البركان، وقد كانت أعمق مما هي عليه الآن ولكنها امتلأت بالرسوبيات والظمي والغبار والرمال المنقولة عبر المسيلات أو بالرياح. يتوقف ماؤها على الأمطار الهائلة في الشتاء، ويتبخر معظمه في أشهر الصيف، ويصل ارتفاع مستوى المياه في الشتاء إلى نحو 2م، لكن يبدو أنّ مستوى البحيرة ازداد متراً ونصف المتر منذ إنشاء القصر.

تستثمر المياه بطريقتين، التغذية السطحية المباشرة من الخبرة، أو من الآبار التي حفرت وتوزع في منطقة الآثار وبطن المسيل المائي، وأغلبها دائرية يصل قطرها بين 1- 1,5م تتغذى الآبار عن طريق الرشح الداخلي. (ابراهيم أحمد علي سعيد، بتصرف، ص10-15) (الشكل: 2-3)

. الأعمال الأثرية:

في سنة 1862 كان ملخيور دو فوغيه Melchior De Vogue أول من زار جبل أسيس ورسم مخطط القصر والحمام، وكان مقتنعاً أنّ تاريخه يعود إلى العصر الروماني مع أنّها لاتوجد كتابات يونانية أو لاتينية. ولكنه وجد على صخور فوهة البركان بعض الكتابات التي تدل على أنها سبائية، وكتابات أخرى كوفية (ترجع إلى العصور الإسلامية الأولى)، وكان من ضمنها أربعة أسماء عربية منها اسم رجل يدعى محمد بن الوليد. (جمعية البحث الألمانية، ص245).

كما زاره الألماني ماكس فون أوبنهايم Max Von Oppenheim سنة 1893، في أثناء رحلته من البحر المتوسط إلى الخليج العربي، واعتقد أنّ الأطلال الموجودة فيه رومانية. بعد ذلك زاره الباحث الفرنسي رينيه دوسو R. Dussaud سنة 1899، وعرفه بأنه موقع روماني في شمال المنطقة التي تجوبها قبائل الصفا. (رينيه دوسو، ص 442).

ثم زارته الباحثة جرتروود بيل Gertrud Bell في كانون الأول سنة 1913، وعملت قليلاً في الموقع غير أنها توفيت قبل أن تنشر بحوثها. بعدها زاره أو درسه كل من M. Alois Musil و ك.أ.ك. كريزويل K.A.C. Creswell.

وفي عام 1934 نشر أ. بوادبار A.Poidebard نتائج بحثه عن أثر روما في صحراء سورية "La Trace De Rome – Dans Le Desert De Syria" الذي تضمن توثيقاً ورسماً وصوراً جوية لمبان وموقع جبل أسيس، وكان مقتنعاً أنّ تاريخها يعود إلى العصر الروماني، وافترض أنّ منابع الماء كانت كافية لتمد المدينة طوال السنة. ودعم قوله بوجود تفرع من طريق ديوقليسيان في عمان، يؤدي إلى تدمير ماراً من النمارة والزلف وجبل أسيس.

في سنة 1938 زار الموقع الباحث الفرنسي ج. سوفاجيه J. Sauvaget، ونشر عنه بحثاً في السنة التالية في مجلة Syria، أظهر فيه التجانس الموجود في تقنية بناء القصر والحمام والجامع ومواد البناء المستخدمة وبرهن على أنّها تعود إلى العصر الإسلامي. ثم قارن بين مميزات العمارة في هذه المجموعة المتجانسة مع القصور الأخرى، وبرهن على أنّ تأسيسه يعود للخليفة الوليد الأول، وقدم تفسيراً لاسم سيس. (جمعية البحث العلمي الألمانية، ص 246) (الشكل: 4-5)

عملت في الموقع بعثة ألمانية في ربيع سنة 1962 ترأسها كلاوس بريش Klaus Brish، بتمويل من جمعية البحث العلمي الألمانية، وقد تبين لها أنّ آثار جبل أسيس من أهم المواقع التي تمثل العمارة الأموية الصحراوية، والتي ما زالت محفوظة

حتى الآن، وقد توزعت الأبنية العمرانية حول البحيرة، فالقسم المهم والأعرض يضم القصر والحمام والجامع، وتنتشر على يمين المسيل المائي الغربي، بينه وبين الصدع. وقد أفيد من الصدع كمقلع للحجارة اللازمة للبناء، والقسم الأصغر ويقع في الشمال عند السفح الجنوبي لفوهة البركان، حيث تتلاصق البيوت الصغيرة الأبعاد، ذات المداخل الواسعة ومازالت بقاياها موجودة، ومنها بعض الأقواس البازلتية والسواكف وغيرها. ويوجد إلى الشرق منها بقايا طريقين استخدماً لجلب الحجارة البازلتية القاسية من سفح الجبل البركاني.

1. الأبنية: هناك كثير من الأبنية التي وثقت ويعود بعض منها إلى الغساسنة في العصر البيزنطي، والقسم الأعظم منها يعود إلى العصر الأموي، وتمتاز بأنها متشابهة في الشكل والمخطط وتقنية البناء، والمواد المستخدمة، وهي غالباً من الحجارة البازلتية المقصبة، ومن اللبن، ومن أهمها:

أ. القصر:

يُعدُّ القصر أهم منشأة معمارية في موقع أسيس، ومن أقدم قصور الأمويين في الصحراء، وهو يضم أول مسجد وحمام، وهو من أقدم الحمامات الإسلامية، الواقعة خارج المدن وكذلك من أقدم الأبنية الإسلامية التي استخدم فيها التزيين بالحصص. ويمتد القصر وملحقاته، المكوّنة من المسجد والحمام والإسطبلات، فضلاً عن عدد من المنازل السكنية الفاخرة، على حافة الخيرة بطول 300م. (الشكل: 6)

والقصر ذو مخطط مربع تقريباً، طول ضلعه 67,53م، ما عدا الضلع الجنوبي، فهو أضيق بما يقارب المتر 66.53م. له أبراج بارزة للخارج في الزوايا، وفي وسط الواجهات، وهي ذات شكل أسطواناني (نصف دائري) في الزوايا الأربع، قطرها نحو 8,40م، ونصف أسطواناني في الجوانب، وقطرها نحو 6,5م. يتألف برج الواجهة الشمالية من طابقين مقببين بالآجر، قطره 9,17م، يتخلله مدخل يبلغ عرضه نحو 275 سم وارتفاعه 350سم، يليه ممر مسقوف بقبوة مثقوبة، طوله نحو 6م، يفتح المدخل على

فناء القصر. في الزاوية الجنوبية الشرقية للممر ثمة بناء منفصل مؤلف من غرف عدّة مبنية من الآجر، ربما كانت مخصصة لإقامة الحراس، وهذا يدلّ على وجود قسمين، عام وخاص، مفصولين في القصر. (جمعية البحث العلمي الألمانية، ص 249).
(الشكل: 7-8-9)

بنيت جدران القصر من الحجر البازلتي المقصب، وأعيد استخدام حجارة أخرى منحوتة، أحضرت من أبنية تعود إلى العصور الكلاسيكية الأقدم، وهذا ما يظهر واضحاً من خلال تيجان الأعمدة وأجزائها التي نقش على بعضها أحياناً حروف وأسماء يونانية، مع وجود تيجان أكثر بساطة، صنعت خلال مرحلة إشادة المبنى.
بلغت سماكة الجدران الخارجية 2,10 سم، فيما استخدم اللبن في بناء الأجزاء العليا من بعض الجدران، واستخدم الآجر في بناء بعض الأقواس، وقويت دعائم الأبواب بإطار من الخشب.

يتوسط القصر فناء طوله نحو 31م، تحيط به أروقة بعمق 3,80م، فيه بئر ماء مبني من الحجارة البازلتية. تطل على الفناء مجموعة من القاعات، كشف في الجناح الجنوبي 11 منها، عرض بعضها نحو 12م، في حين بلّطت أرضيات الفناء والأروقة وممر المدخل بالحجارة المنحوتة. وقد دلت الأعمال على أنّ أرضية القاعات كانت مبلطة بفسيفساء رخامية، إلاّ أنّها تعرضت للإزالة عند إعادة استخدام الموقع في مراحل لاحقة. (الشكل: 10-11-12)

كان القصر في بعض أجزائه الخارجية مليساً بالجص، ومن الداخل وجدت بقايا زخارف على الأجزاء السفلى من الجدران وخاصة القاعات، حيث نفذت زخرفة نباتية بألوان سوداء أو حمراء أو رمادية، تحمل مشاهد متنوعة. كما عثر في الأجزاء العليا من برج الدخول، على قطعة زخرفية باللون الأسود نفذت على أرضية بيضاء تتضمن آية قرآنية. (جمعية البحث العلمي الألمانية، ص 254).

عثر في بعض قاعات القصر على مجموعة من الأواني الزجاجية ذات الألوان الزرقاء والخضراء من النوع العاتم والشفاف. (عفيف بهنسي، ص 28). وهناك بعض المسارج الفخارية (من العصر البيزنطي المتأخر) وبعض قطع العاج المزخرف، وقطع نقدية تعود إلى العصر الأموي، والعصور اللاحقة له. (جمعية البحث العلمي الألمانية، ص255).

ب . الجامع:

يقع غربي القصر، وهو ذو مخطط بسيط، يتكون من قاعة شبه مربعة الشكل أبعادها 11.1×12.2م، لها مدخلان الأول في الجهة الشمالية، والثاني في الجهة الشرقية، والمحراب في الجدار الجنوبي، ويأخذ شكل حنية نصف دائرية. تقسم القاعة إلى قسمين (جنوبي وشمال) بواسطة ثلاث دعائم تحمل قوسين كبيرين نصف دائريين. توجد على حجارة قاعدة الدعائم بعض الزخارف، وهناك إفريز بارز عند بداية الأقواس. عرض جدران الجامع نحو 90سم، بنيت من اللبن غير المشوي على أساسات من الحجر البازلتي المقصب. (Jean Sauvaget, P. 245). (الشكل:13)

ج . الحمام:

يقع على تلة صغيرة بالقرب من حافة الخربة، وقد سبق لدو فوغيه De Vogie أن وضع مخططاً له. وتدلّ البقايا المعمارية على أنّ الحمام صغير المساحة أبعاده 16.5×14.6م، شُيّد على مصطبة ترتفع نحو 1م عن الأرض المحيطة، يتألف من ثلاثة أقسام براني، ووسطاني، وجواني. يتمثل القسم البراني، بقاعة رئيسة (A) مخصصة للاستراحة وتبديل الملابس، وفيها مدخل الحمام، شكلها مستطيل يصل طولها إلى 14.6م. وهي مسقوفة بقبوة، في قسمها الأيمن توجد مصطبة مرتفعة لها مسقط نصف دائري تعلوه قبة نصف كروية، وعلى الجهة المقابلة إلى اليسار من المدخل توجد حجرتان صغيرتان تعلوهما قبوة أقل ارتفاعاً. للقاعة ثلاث نوافذ مرتفعة، واحدة في قسم المصطبة، واثنان في الطرف المقابل.

يتألف الوسطاني من قاعتين صغيرتين B و C، وفيهما نافذتان ضيقتان للإضاءة تفتحان على القسم البراني، القاعة الأولى B، وهي ذات شكل مستطيل مخصصة للمياه الدافئة، والثانية C، وشكلها مربع، وكانت مخصصة للمياه الساخنة. أما القسم الجواني D فيدخل إليه من القاعة C، سقفه على شكل قبة وفيه ثلاث مصاطب، وهو غرفة البخار الذي يدخل إليه عبر فوهة تتصل بالقاعة E، المخصصة للتسخين. وهناك أخيراً قسم القميم الذي يحتوي على المواقد والحطب ويقع في القبو. بنيت جدران الحمام بالحجارة البازلتية المقصبة، فيما بنيت القبوات من الآجر المشوي، وطلبت بطبقة من الطينة الكلسية. (Jean Sauvaget, P. 246). (الشكل: 14 - 15)

د . البناء D:

يقع بين مجموعة الأبنية على السفح الجنوبي لفوهة البركان، شمالي القصر. وهو منزل سكني له مسقط مستطيل الشكل أبعاده 28×32.5 م، في زواياه الأربع أبراج أسطوانية الشكل، وفي وسط كل ضلع برج مربع. مدخله في واجهته الجنوبية، وهي الأكثر حفظاً لأنها مبنية من الحجارة فقط. يؤدي المدخل إلى ممر تحيط به من الجانب الغربي غرفة أبعاده 6×7 م، ومن الجانب الشرقي غرفتان حجم الأولى مشابه للغرفة السابقة، أما الداخلية (ربما للخدمة) فهي أصغر حجماً. من المعتقد أن الغرفة اليسرى استخدمت اصطبلًا للحيوانات، واليمنى لإقامة حراس المبنى وخدامه لأنها مفصولة عن غرف البناء الداخلية. يفتح الممر على فناء تحيط فيه الغرف من الجهات جميعها، ثلاثة منها في الجهة الشمالية، وهي ذات شكل مربع، وإلى الغرب منها المراحيض. وفي الوسط توجد غرفة واحدة مستطيلة في كل من الجهتين الغربية والشرقية. وهناك ممر عرضه 2م في الزاوية الشمالية الشرقية للمبنى ينتهي بدرج يؤدي إلى قسم من الطابق الثاني، ويقابله في الزاوية الجنوبية الغربية ممر ودرج مشابه يؤدي إلى القسم الآخر من الطابق الثاني. بني جدار صغير من الحجارة ضمن الفناء أمام الغرف الشمالية المربعة،

ومن غير الواضح الهدف من إنشائه. (Jean Sauvaget, P. 247, 248, 249).
(الشكل:16)

هـ . البناء E:

يقع جنوب الخبرة، جوار القصر من جهته الغربية، وهو منزل سكني كبير مشابه للمبنى السابق، شكله شبه مربع أبعاده 28.1×33.5 م، مدخله في واجهته الشمالية، يؤدي إلى بهو واسع يفتح على فناء مركزي تحيط به غرف صغيرة (معظمها مربعة الشكل) من الجهات كلها، وهناك درجان في زاويتي المبنى الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية يؤديان إلى الطابق الثاني. تحيط في بهو المدخل غرفتان من كل جانب أبوابها نحو الغرف الداخلية أو الفناء. بني المنزل بشكل مشابه للمبنى السابق، من الحجارة البازلتية ومن اللبن. (الشكل:17)

و . البناء F:

وهو منزل سكني يقع على منحدر السفح البركاني، مسقطه مستطيل الشكل أبعاده 26.8×29 م، مدخله في واجهته الجنوبية، يؤدي مباشرة إلى الفناء، الذي تحيط به مجموعة من الغرف المربعة والمستطيلة الشكل، وهناك درج يؤدي إلى الطابق الثاني يقع في الجهة الغربية من الفناء. (Jean Sauvaget, P. 250). (الشكل:18)

ز . البناء G:

يقع جنوب شرقي القصر، مسقطه مستطيل الشكل أبعاده 34.8×39.5 م، ويبدو واضحاً من مخططه أنه لم يكن مخصصاً للسكن، باستثناء بعض الغرف فيه. له مدخل في واجهته الجنوبية، على جانبيه من خارج البناء وداخله ركائز تحمل سقفاً كان يشكل مظلة له من الجهتين. ويطل المدخل مباشرة على الفناء الذي تحيط فيه من الغرب أربع غرف هي الوحيدة التي كانت مخصصة للسكن. كما تطل عليه من الشمال ثماني قاعات مستطيلة متلاصقة أبعاد كل منها 3.8×13 م ربما كانت مستودعات،

ومن الشرق هناك قاعتان إحداهما كبيرة الحجم أبعادها 11.8×7.8م، والأخرى صغيرة أبعادها 3.2×7م. (Jean Sauvaget, P.250). (الشكل: 19)

2 . النقوش:

عثر في الموقع على 106 نصوص نقشت على 84 حجراً بازلتياً، عليها رسوم وكتابات صفائية، ويونانية، وعربية كتبت بالخط الكوفي البسيط، وحملت مشاهد لحيوانات وأشخاص بوضعيات مختلفة، وقد نفذت عفوياً بطريقة النقر الخفيف، وبعضها حفر بشيء من العمق. وتتألف النقوش من شواهد، وكتابات تسجيل ذكريات السكان، الذين طرقتوا المكان، وآيات قرآنية، وأدعية، وغيرها، وهي تقدم فكرة عن أحوال الناس الذين عاشوا في هذه المنطقة منذ القرن الثاني حتى الثامن بعد الميلاد، ولاسيما أولئك الذين عاشوا في القصر خلال العصر الأموي، أو الذين ترددوا على الموقع بعض الوقت كرجال القوافل التجارية. وقد ورد في الكتابات 40 اسماً تتضمن أسماء عدد من الأمراء الأمويين، وأفراد الحاشية، والأطباء والمربين والعبيد والموالي. (محمد أبو فرج العش، ص282) (الشكل: 20-21-22-23-24-25).

3 . النتائج:

أثبتت الدراسات الأثرية أنّ بداية السكن في جبل أسيس تعود إلى العصرين الروماني والبيزنطي، ثم خلال العصر الأموي، شيّد الوليد الأول (حكم بين 86 - 96هـ، 705 - 715م) مجمعاً عمرانياً فيه يضم قصراً ومنتزهاً صحراويّاً له ولأفراد عائلته كما يتبين من أسماء أولاده. ومن خلال مقارنة هذا القصر بالعمارة المعروفة زمن الأمويين يلاحظ أنّ مخطط القصر وأبراجه تشبه كثيراً من الأبنية الأموية، ومنها خربة المنية وأبنية حوران والرصافة. فأبعاد القصر قريبة من أبعاد المبنى الصغير في قصر الحير الشرقي، إذ بلغ طول الجدار نحو 66م، وسماكة الجدران 2م. أما بالنسبة إلى الفناء فإنّ معظم قصور الأمويين كانت ذات أفنية مع أروقة أعمدة، ويمكن مقارنة قصر أسيس بقصر المنية وقصر عنجر، حيث وجد الفناء وحوله الأروقة. كما أنّ النوافذ ودعائم

الأبواب لها مثل في كثير من العمارة الأموية ومنها قصر المفجر. أما من ناحية مواد البناء، فيلاحظ أنّ استعمال البازلت والإتقان الدقيق لنحت الأحجار، كما يظهر جلياً في برج الدخول، يشبه بشكل أكيد العمارة البازلتية في منطقة بصرى وحوران، ولاسيما قصر برقع (في الأردن) الذي بناه الوليد الأول عام 81هـ 700م وكان أميراً آنذاك. إذ إنّ برج برقع يشابه برج الدخول في أسيس، من حيث استخدام الحجر المنحوت جداً، والقوس المدبب نفسه، وتساوي بعض المداميك في كتلة البازلت الخام مع مداميك الأحجار المنحوتة جيداً. أما من ناحية استخدام الآجر المشوي، فثمة تشابه بين قصر أسيس، وقصور كل من: الحير الغربي، والمبنى الصغير في قصر الحير الشرقي، والرصافة والمشتى والطوبة، وخربة المفجر. ويلاحظ أيضاً وجود تشابه في بعض عناصر البناء مع النماذج الساسانية، وهو يدلّ على التأثير الكبير للثقافة الساسانية في الأمويين، وربما كان بين نساء الوليد الأول أميرة ساسانية، غنيمة من فتح العراق. (جمعية البحث الألمانية، ص 249).

. المراجع .

- . ابراهيم أحمد علي سعيد، الطرق القديمة في استثمار الموارد المائية في خربة جبل سيس وأبداها التاريخية، مجلة دراسات تاريخية، العددان 69-70، (جامعة دمشق)، 1999.
- . جمعية البحث الألمانية، قصر جبل سيس الأموي، (تقرير تمهيدي نيسان 1962)، تعريب نورد الدين حاطوم، مجلة الحوليات الأثرية السورية، العدد 13، دمشق، 1963، ص 248-254
- . رينيه دوسو، المسالك والبلدان في بلاد الشام في العصور القديمة، ترجمة عصام الشحادات، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، بيروت - دمشق، 2013
- . عفيف بهنسي، تكوّن الفن العربي الإسلامي في ديار الشام، الحوليات الأثرية السورية، العدد 22، دمشق، 1972 ص 9-28

- محمد أبو فرج العث، كتابات عربية غير منشورة وجدت في جبل أسيس، مجلة الحوليات الأثرية السورية، العدد، 13، دمشق، 1963، ص 281-293
- Jean Sauvaget, Les Ruines omeyyades du Djebel Seis, in: Syria. Tome 20 fascicule 3, 1939, pp 239-256.
- Le Chateau Omeyyde r Djebel Seis(Rapport preiminaire de la premiere champagne des fouilled enterprises avec les fonds de la "Deutsche Forschungsgeminschaft", 1962, les Annales Archeologues Arabes Syriennes, Volume 13 ,Damas, 1963, pp 135-158
- J. Sauvaget, les Ruines Omeyyades du Djebel Seis, Syria, XX, Paris, 1939, pp. 239- 56







